سؤال المنهج في الخطاب الفلسفي

أ. بشير خليفي،
قسم الفلسفة،
.المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر

ألا يمكن أن نتفلسف بدون منهج؟أي بعيدا عن سمت معين وبدون طريقة في بسط المفاهيم بإحداث مواءمة فيما بينها لتشكيل خطاب فلسفي.

وإن كان بعض الفلاسفة يرون أن مسألة المنهج تتعارض في مطلقاتها مع الفلسفة التي تتحايث مع الحرية، لتتشكل الفلسفة بالنسبة لذاتها بوصفها البداية المطلقة (وعزيز.ط، 17:1990).

قد ينسحب هذا الكلام على الشفاهية، أما حينما تكون القراءة مطلبا أساسيا فإن المسألة تنعكس على إبراز أهمية الكتابة بوصفها ملمحا يعلن بداية التاريخ (قاري.م، 223:2002)، وبالتالي فالبداية المطلقة تحيلنا بالأساس إلى التأملات الشخصية التي يعبر عنها الفرد، وربما أكثر إلى طريقة التعبير الشعري عن الفلسفة، يقول زرادشت: "تبدو الأشياء حقا أنها تقترب بنفسها وتتقدم من تلقاء ذاتها طالبة أن تصبح صورا وتشبيهات (...) وكل ما هو موجود يريد حينئذ أن يستحيل إلى كلمات " (بدوي، ع، 97:1956).

بيد أن حضور منهج ما حتى داخل هذا السياق وارد بشكله البعدي المسألة كما يقول أنصار هذا التوجه تحتاج إلى تؤدة و روية يقوم من خلالها الناقد المتبصر بنقد الخطاب الفلسفي من خلال طريقته في عرض المفاهيم.

سؤال في المنهج

كثيرا ما يتساءل المهتم بعوالم الفلسفة وبطرائق تطويرها (داخل ما يسمى بالميتافلسفة) عن مدى إمكانية وجود منهج فلسفي واحد يمكن استعماله من تحصيل الفكر وتقديمه؟ وكذا عن مدى نجاعة البراهين التي يقدمها لإثبات تفرده.

وقد يتساءل بالمقابل في صفة أخرى عن إمكانية تعدد مناهج البحث في الفلسفة؟ وهل يعد الأمر صورة ايجابية تساهم في زيادة تعميق الحس الفلسفي وإبراز تفرده في القيمة؟ أم نقيصة تساهم بشكل سلبي بتأجيج الخلط حتى تمسي عملية التفلسف بهذا المعنى شبيهة - على حد وصف وليم جيمس – بالبحث عن شيء أسود في غرفة مظلمة؟

المنهج: المعنى والطريق

تشير كلمة المنهج من زاوية الاشتقاق اللغوي إلى الترجمة التي تعنيها الكلمة الفرنسية ذات الأصل اليوناني والتي تعني التتبع والتقصي بالمعنى الذي يحيل إلى وصف المنهج على أنه المسلك الواضح أو الطريق المستقيم المفضي إلى الغايات(بغورة.ز، 108:2001)

المسألة لا تتوقف عند حدود التعريف العام، إذ الكلمة تثير كثيرا من اللبس اللغوي خصوصا حينما نود أن نتفحص المعنى الذي يعطي للمنهج من خلال جملة التجليات التي يستحيل إليها أثناء الاستغراق في التنظير والممارسة.

وبالتالي فأننا حينما نفتح الكتب الفلسفية غالبا ما نلامس حالة التقريظ التي تدفع عددا لا يستهان به من الفلاسفة والمدققين على استعراض المنهج أو المناهج التي اتبعوها أثناء كتابة مواضيعهم، فيطيب الحديث عن المنهج وتتحول المسالة - بتعبير الجابري - إلى استعراض عضلات فكرية (الجابري.م ع، 11:1988)

نتحدث هنا عن الطريق من خلال الكتابة، فعندما نتحدث عن الفكر، فإننا غالبا ما نعني الجهات التي يتمظهر وفقها هذا الفكر، ونقصد أساسا مجموعة الأقوال والنصوص، التي تشكل الخطاب الذي يعني بدوره مقول الكاتب أو بتعبير ليبنتر قول منظم، من خلال بناء من الأفكار يعبر عنها استدلاليا عبر الانتقال من مقدمات إلى نتائج.

إنه مثل البناء - بناء المنزل مثلا - لابد من بناء وكذا من استعمال مواد(مناهج)، حتى يكون البنيان مرصوصا يشد بعضه بعضا، بطريقة تجعله يعبر لوحده عن خصوصيته.

ليس أمرا يسيرا أن نضبط مفهوما محددا للمنهج فباستقصاء تاريخ الأفكار الفلسفية ندرك أن المنهج قد يحيل البعض إلى طريق اكتساب المعرفة وكذا إلى طريقة بسطها في حين يرادف البعض بينه وبين المذهب من خلال اعتبار البنيوية والتحليلية والفينومينولوجية مذاهب تحيل إلى مناهج...

بينما يرى الجابري أن المنهج لا يحيل إلى الخطوات والمراحل إلا في النصوص التنظيرية التي تتحدث عن المناهج، في حين إن مسألة الممارسة تحيل بدورها إلى مفاهيم مستعملة أثناء معالجة موضوع ما وطريقة توظيفها (الجابري. م ع، 12:1988)

وقد تتعدد المناهج باختلاف الفلاسفة، إذ يمكن الحديث عن منهج يتسم به التوسير أو باشلار أو فوكو كما ذهبت إلى ذلك نوال الصراف الصايغ (الصايغ. ن ص، :1983)

ويكون التعدد حتى لدى التيار المعرفي الواحد، إذ أن المبتغى الفلسفي المراد تحقيقه والذي يتخفى في غالب الأحيان، لا يبرز له طريق واحد معروف بقبليته، وإلا لكانت عملية التفلسف تفترق مع حرية اختيار الباحث لمناهجه التي غالبا ما يساير طبيعة الموضوع وكذا الأهداف المعلنة، مما ييسر للباحث – في شق معين – استعماله للمفاهيم وكذا استرساله في عملية المحاججة.

الإشكالية هنا لا تتوقف عند حدود تعدد المناهج فحسب، فعلى الرغم من أن بعض الفلاسفة الممثلين لبعض التيارات الفكرية أعلنوا اكتشافهم لمناهج تمكن الفلسفة من الوصول إلى نتائج صارمة وذلك بإقصاء المرجعية وتعميق القطيعة مع المؤثرات الخارجية

كما فعلت البنيوية التي أسست بحوثها على التدقيق اللغوي والانضباط المنهجي، بهدف الوصول بالعلوم الإنسانية بما في ذلك الفلسفة - أو ربما خصوصا الفلسفة - إلى مستوى دقة العلوم الرياضية والطبيعية.

لكن البنيوية وبحسب كثير من الدارسين قد وصلت إلى أفق انسدادها حينما بلغت أوجها وهي مفارقة فلسفية، ولم يبق لديها الآن إلا الاحتفاء ببطولات روادها من ليفي ستراوس واكتشافاته في الأنثربولوجيا إلى فرانسوا جاكوب في بحوثه وإسقاطاته المعرفية في حقل البيولوجيا.

لقد استمدت البنيوية روحها من النتائج الهامة التي توصل إليها فرديناد دوسوسير في كتابه " دروس في الألسنية العامة " والذي قام بتقسيم العلامة إلى دال يمثل الصورة الصوتية للكلمة والمدلول يمثل المفهوم الحاصل من خلال هذه الصورة.

لندرك أن المسألة أضحت نسقية بين دال ومدلول، هنا يحق لنا أن نتساءل مع الأستاذ عمر مهيبل: كيف يمكن للغة النسقية أن تحيط بكل هذا المفهوم الهيولي الذي هو الإنسان؟(مهيبل.ع، 2003)

بمعنى إمكانية انفتاح اللغة على فضاءات غير محدودة أثناء سعى الإنسان إلى التعبير عن أحواله النفسية التي قد لا تستجيب لصرامة المنهج النسقي الذي تبنته البنيوية، قضية هذا الصراع يعبر عنها عبد السلام المسدى بالقول:" إن صراعا قارا بين اللغة والإنسان: هو أبدا عاجز أن يلم بكل طرائقها ومجموع نواميسها وكلية أشكالها كمعطى " موضوعي ما ورائي " في نفس الوقت، بل إنه عاجز أن " يحفظ " اللغة شموليا، وهي كذلك عاجزة عن أن تستجيب لكل حاجته في نقل ما يريد نقله وإبراز كل كوامنه من القوة إلى الفعل " (المسدي. ع، 106:1982).

وعليه، فقد أمسى من الواضح أن الادعاء بإمكانية نجاح منهج واحد في الوصول إلى المقصدية من البحث لا يجد دعائم قوية في إبراز زعمه وإدعائه، مادام الواقع الفلسفي يظهر أن المنهج الفلسفي لا يمكنه أن يترعرع في انعزالية أو ينمو باستقلالية مطلقة بل أن ميلاده وتطوره قائم على السجال والمحاورة مع مناهج أخرى من خلال التحليل والبلورة أو الرفض والتجاوز.

ومثالنا في ذلك المنهج السقراطي الذي قام في البداية كرد على السفسطائيين الذين بلبلوا المعرفة الفلسفية من خلال الاعتماد على اللغة المراوغة التي تتأسس على البلاغة الساحرة الملهبة للجماهير وكذا الفصاحة التي تتنقل بين قطبي الاستدلال القوي والافحام السريع المعتمد على الإبهار والتلاعب بالكلمات.

من النسق المغلق إلى الانفتاح: تجربة فتجنشتين

يـرفض الفيلـسوف النمـساوي لـودفيج جوزيـف يوهـان فتجنـشتين (1989-   1951) الوظيفـة التركيبيـة للفلسفة الـتي تـسعى إلى تقـديم صـورة شـاملة للكـون كمـا هـو واقـع لدى المذاهب الشمولية التي تنطلق من تفسير قبلي للوقائع دون الأخذ بسماتها الجزئية.

هـذه الـشمولية تـشكل عائقـا يقـف حـائلا أمـام الوصـول إلى الأفـق الفلـسفي، حينمـا تمكـن هـذه الـشمولية مـن تقـديم إجابـات عـن أسـئلة جديـدة ضـمن أطـر قديمـة، حيـث لا تخـرج الإجابـة عـن دائـرة المنظومـة المعرفيـة الـتي يحوزهـا الفيلـسوف وهـذا مـالا يقبلـه فتجنشتين في تأكيـد (WITTGENSTEIN.L ,1961: 87).رغبتـه في تجـاوز كـل نظـام مسبق للأشياء .

لقد اعتقد فتجينشتين بأنه قد حل جميع الإشـكالات الفلسفية حينمـا أصـدر كتابـه الشهير رسالة منطقية فلسفية سنة 1921، هذا ما دفعه للتوقف عـن الكتابـة الفلسفية مـدة سـبع سـنوات. (HUISMAN.D,1984: 2668) إلا أن الوقـائع المتجـددة تفـرض علـى الفيلسوف تجديد مناهجـه وآلياته في البحـث كلمـا دعـت الـضرورة، مبتعـدا في ذلـك عـن الطروحات الدوغماتية والزهو " بالتزمت المتعالي " الصادر عن " اليقين الأبدي ".

لقد عمد فتجنـشتين أثنـاء مراجعتـه لمنهجـه بتسريح اللغـة مـن التنظير والتخـريج الـتقني وربطهـا بالتجـسيد العيـاني مـن خـلال التركيـز علـى اللغـة العاديـة. (PEARS.WITTGENSTEIN,1971:107)

هذه الأخيرة تتأسس على ما سماه فتجنشتين بألعاب اللغة، مـا يعطـي للكلمـات مجـالا رحبا أثناء التوظيف والاستعمال ناقلا في ذلك منهجه الفلسفي مـن عـالم التصورات القـائم على التنظير الهندسي إلى عالم الحركة بالانفتاح على السياق الاجتماعي.

الجابري وإشكالية المنهج

لا يقـر المفكـر المغربـي محمـد عابـد الجـابري في دراسـاته الأكاديميـة بوجـوب وجـود منهج واحد يقتفي الباحث أثره ويكون المنهج بتحقق هـذا الفهـم الأخير كمرشـد سـياحي يبين للزائرين الطريق مكثرا عليهم المحظورات في أرض وعرة.

إذا أن المسألة لا تتوقف عند حدود إتباع منهج جاهز محـدد مـسبقا مـن المنـاهج المتعـددة الـتي يعتبرهـا الجـابري " نـصائح فكريـة " ينبغـي للباحـث أن يكـون علـى درايـة بهـا (الجابري.م ع، 11:1988).

هذا على صعيد ما ينبغي أن يكون، أما أثناء الممارسة فإن الأهـداف المتوخيـة مـن جهـة وطبيعة الموضوع من جهة أخرى تفرض علـى الباحـث الأخـذ بمـنهج معـين أو عـدة منـاهج أو حتى اختراع منهج جديد.

ويقـر الجابري بأن قضية المنهج ستبقى غامضة إن هـي لم تطـرح علـى اعتبارهـا مـسألة مفاهيم، فالمنهج عند الجابري ليس جملة خطوات أو مراحل مـع إمكانيـة صـحة ذلـك في الكتب التي تتعاطى مـع قضية المنهج على المستوى التنظيري، أمـا أثنـاء الممارسـة فـالمنهج

كما يقول الجابري: " يعني جملة المفاهيم التي يوظفها الباحث في معالجة موضوعه والطريقة التي يوظفها بها " (الجابري.م ع، 12:1988).

إن المسألة التي يطرحها الجابري في كل مرة يتناول فيها إشكالية المنهج ترتبط بوجود معرفة الموضوع بطريقة تحمل الإحاطة والعمق وكذا الدقة في الفهم لأن ذلك سيؤدي إلى تحديد الموضوع والتعرف على طبيعته بشكل لائق، التي تفضي داخل هذا السياق إلى إمكانية الوصول إلى المنهج كخطوة تالية بعد التعرف على الموضوع تماشيا مع المقالة الشهيرة لدى كثير من الابستمولوجيين وكذا المهتمين بمناهج العلوم والتي مفادها بأن " طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوعية المنهج "(الجابري.م ع، 1986 : 04).

حوار المناهج ومبايعة النسق المفتوح

ليس في الفلسفة طريق واحد معبد ، وبإمكان الفيلسوف أن يقصد الحقيقة الفلسفية التي يبحث عنها وفق أي مسلك شاء، المسألة هنا تتوقف بالأساس على الإقناع والنجاعة من زاوية التنظير والممارسة.

إن الفلاسفة أحرار في أن يستعملوا أي طريق يرون أنها توفر لهم اليسر والضمان وتمكنهم من الوصول إلى المعلومة الفلسفية وبسطها بطريقة مرتبة ومتقنة.

هنا ندرك الاختلاف بين عالم الطبيعة والفيلسوف هذا الأخير ليس ملزما مثل الأول بالتبني شبه الدائم للمنهج التجريبي الذي يتأسس على الملاحظة والتجربة.

إذ بإمكان الفيلسوف أن يرفض منهجا معينا كالذي يرفض المنهج السقراطي في التهكم والتوليد أثناء الحوار الفلسفي أو المنهج السفسطائي القائم على المجادلات اللفظية، فبحسب غاستون باشلار إن " الحقيقة بنت النقاش وليست بنت التعاطف ".

كما أن المناهج تتعدد بحسب مقاصد الفيلسوف ومراحل تفلسفه، حيث يمكن أن نحصي مناهج الاكتشاف والتعلم، وكذا مناهج الاستدلال القائمة على البرهان والإقناع، إضافة إلى مناهج التعليم والتبليغ.

وهذه المناهج بحسب الطاهر وعزيز تقوم على آليات المعرفة من حدس وتمثيل واستقراء وتحليل وتركيب...(وعزيز.ط، 35:1990).

هذا زيادة على إسهام بعض الفلاسفة وعلماء المناهج في بلورة مناهج نقدية تهدف إلى تطوير المعرفة الإنسانية بشكل عام والفلسفية على الوجه الخصوص بإثارة سؤال المنهج من خلال فتح مجال السجال بين المناهج والوقوف على أهدافها المعلنة مع تقفي عنصر التحقق.

وحالة الجدل تؤشر للتعدد وإلى عدم مبايعة منهج واحد بوصفه الخلاص وإنما الوصول إلى " التخصيب الشامل "عن طريق الدرس الحاصل في الذهن بعيدا عن لغة الوهن من ناحية أو الانبهار والاستعلاء من جهة أخرى (إبراهيم.ع، 06:1996).

ويفسر الفيلسوف الاسباني المعاصر أورتيجا أي جلست (1883- 1955) ضرورة التعدد والاختلاف في الفلسفة بوجود أوجه نظر عديدة بقدر الذين ينظرون ويتأملون في الكون، وكل فيلسوف ينظر إلى الوقائع التي تشغله من زاوية خاصة (نظمي‌س، د ت: 06).

وعليه، فالضرورة تبدو ملحة لانفتاح المدارس الفلسفية خصوصا تلك التي تعطي للمناهج أهمية بالغة، وذلك بغرض تحقيق نظرة توازن مبررة (فريجه.غ، 139:2000)

تهدف إلى عمل تشاركي لا يحيل إلى المركزية ويسعى إلى تطوير الفلسفة، بالمنطق الذي تشير إليه حكمة أسبانية بأنه: " لا تصور خاطئ بالمطلق، فحتى الساعة تشير إلى التوقيت الصحيح مرتين في اليوم "

قائمة المراجع

أ- بالعربية:

1/ ابراهيم عبد الله وآخرون (1996)، معرفة الآخر: مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، مطابع المركز الثقافي العربي بيروت والدار البيضاء، ط 2.

2/ الجابري محمد عابد (1988)،الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، دار الطليعة بيروت، ط3.

3/ الجابري محمد عابد (1986)،التراث ومشكلة المنهج (مقال) مجلة المستقبل العربي بيروت، العدد 83.

4/ المسدي عبد السلام (1982)، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط2.

5/ الصايغ نوال الصراف (1983)،المرجع في الفكر الفلسفي، دار الفكر العربي،القاهرة، د ط.

6/ بدوي عبد الرحمن (1956)،نيتشه، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ط3.

7/ بغورة الزواوي (2001)، المنهج البنيوي: بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ط1.

8/ فريجه غوتلوب وآخرون (2000)، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث،دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط2.

9/ قاري محمد (2002)،سميائية المعرفة المنطقية:منهج وتطبيقه،مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1.

10/ نظمي محمد عزيز سالم (د.ت)،دراسات ومذاهب، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر.

11/ وعزيز الطاهر (1990)، المناهج الفلسفية، مطابع المركز الثقافي العربي بيروت الدر البيضاء، ط1.

ب- بالفرنسية:

12/ HUISMAN Denis. (1984), *Dictionnaires des philosophe*,P.U.F. Paris. 1ère édition.

13/ WITTGENSTIEN Ludwing ,(1961) *Tractatus logico philosophicus*, Traduit par Pierre KLSSOWSKI, édition Gallimard, F.R.C. Paris.

ج- بالانجليزية:

14/PEARS David.(1971). *Wittgenstein, Fontana*. edition.uk. First published.